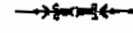


حول نعيم الجنة

بين الحسية والروحية

للدكتور محمود علي قراعة



نحن لم ننكر ما في وجوه أهل الجنة من نضرة النعيم يسقون من رحيق مختوم متكئين على أرائك منصوبة على أطراف أنهار مطردة بالخمر والعسل واللبن ، محفوفة بالغلمان والولدان ، مزينة بالخور العين ، وأن فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . ولكننا إن آمننا بهذا كله ، فإننا أكثر إيماناً بأن لذة النظر إلى وجه الله تعالى تفوق كل اللذات ، وأن لذة اللقاء والرضى أسهى نعيم . وإننا نرى أن اللذات الأخرى الثانوية لذات حسية تسمو بالروح أو لذات روحية معنوية نظيرها ، لذلك قال مجاهد في قوله تعالى « وأزواج مطهرة » قال من الحيض والغائط والبول والبصاق والنخامة والمني والولد ، فارتفع بلذة الأكل والشرب والتكاح من المستوى البهيمي إلى مراقبة الروح . وأنت في هذه الدنيا إذا جلست إلى مائدة نعمة ، ففكرت فيك شهوة الطعام وسررت بألوانه المختلفة أمام ناظريك ، تستطيع أن تضع على المائدة الأزهار والرياحين الجميلة ، ووجودها لا يلعب الرغبة في الطعام ، بل يجعلها شريفة ويوجد حولها جواً روحياً يسمو بها بعض السمو . ولذلك نرى النزالي وهو حجة في الإسلام يجعل للأكل صفة اجتماعية منظمة ، فيرى أن من آدابه أن يكثر الإنسان الأيدي على الطعام ولو من أهله وولده ، وأن يفضل اليد لأن اليد لا تخلو عن لوث في تماطى الأعمال فتسلها أقرب إلى النظافة والزاهة ، ولأن الأكل لقصد الاستمانة على الدين عبادة ، وأن يبدأ بيسم الله في أوله وبمحمد في آخره . ولا ريب في أن القصد من هذا السمو بلذة الأكل وإحاطتها بأجواء روحية تخرجها بقدر الإمكان عن ماديتها . فإذا قلنا بروحية اللذات في الجنة وبأن الحسى منها يمززه الإشعاع الروحي ، فإننا إنما نعبّر أهدق تعبير عن روح الإسلام (ولو كره الأستاذان جويق وحدان) . وكذلك يمكن القول عن الصلة بين المرء

وزوجه ، هل يمكن قصرها على الصلة البهيمية وإبعاد الصلة القلبية الروحية ، أم أن الصلة القلبية الروحية هي الأصل ، وما عداها تابع ؟ ثم لماذا ننكر خطر الإشعاع الروحي ؟ أما القول بأن السمو الروحي للذات الحسية يمتد منه أن كل شخص لا يمكن أن يتعدى درجته من النعيم ، فردود بأنه لن يتعدى درجته لأن ما حوله من نعيم يهيئ له السمو الروحي للدرجة المقدرة له . هذا إذا جازيناهم لاستدراجهم ، لأنه لم يقل أحد بتحديد اللذة وإن كنا نختلف في درجات النعيم ، فكما أنك في الدنيا لك أن تستعمل ملكك في كل أوجه الاستعمال إلا الاستعمال المنافي للقانون أو الذي فيه إساءة لاستعمال الحق أو التعمد على الغير ، فأقل ما يتصور أن تكون كذلك في الآخرة لا يحد من استعمالك إلا بعد هذا الاستعمال عن جو السمو الروحي الذي يشع على المؤمنين . ثم إن تحديد الدرجات لا يمنع أن أتمتع بكل ما أستطيع من التشوة الروحية ، لأن الممنوع ليس الصعود في نشوق بل الرق عن درجتي . ثم إن الذي يحدد هذه الدرجة هو معرفة الله ، فبقدر معرفته سبحانه ستكون درجات النعيم ، وبقدر معرفته سبحانه ستكون اللذة . ولعل الذين ينكرون هذه الفكرة ، يفهمون قول التلساني إن من شئون النفس أنها كلما قل اشتغالها بالبدن انبسطت وأعطت قواها ، وأنها كلما ازدادت علماً فعلت به ، ازدادت قوة على ما هو أغمض وأرفع ، فلا هي تنحصر ولا الأمر ينتهي . ولذا رأى النواوي أنه على من أراد أن ينزع عن عالم الحس ويرجع إلى ذاته ، أن يعمل على ركود حواسه الظاهرة ليقوى على أن يحس بما لا يقع عليه الحس . فإذا فهموا معنا أن النفس الإنسانية كما قال النزالي ليست جسماً ولا جسمانية بل هي جوهر مجرد (أي ليست قوة جسمانية حادثة في المادة ولا جسماً بل ولا مكانية لا تقبل الإشارة) متصرف في البدن تصرف التدبير من غير أن تكون داخلية فيه بالجزئية والحلول ، استطاعوا أن يعرجوا مثل فيثاغورس إلى العالم العلوي (إذا سما جوهرهم) وأن يسموا مع أرسطو وأفلاطون إلى درجة الخروج عن البدن كأنهم مجردون لا أبدان لهم ، فيروا أنفسهم داخلين في ذواتهم خارجين عن سائر الأشياء ، ويروا في نفوسهم المتجردة من أفعال البدن أنواعاً من الحسن والبهاء ، ما تعجب وتربهم أنهم من الجوهر الأعلى الأفضل

الشريف وأتهم ذوو حياة فعالة كما قال العلامة مسعود التفتازاني فيفهمون مع الصوفيين أن كل المخلوقات بأسرها مظاهر صفات الله وطريق إلى القرب منه وزيادة معرفته . فإذا ما فهموا معنى هذا فإنما لا نبخل عليهم في أن نضرب لهم مثلاً لحسيات تسمو بأرواحهم ، وأسمى مثل هو مثل الصور الجميلة الأدمية وهي حسيات تدعو الكثيرين إلى أخطأ أنواع اللذات الحسية ، ولكنهم إذا اتبعوا السمو الذي ذكرنا ، فإنهم واصلون إلى فهم أن هذه الصور موصلة إلى معرفة معانيها ، وما معانيها إلا إدراك قدرة الله تعالى وعظيم شأنه وجليل جماله ، فإذا ناجى المخلوق صورة آدمية جميلة فهو لا يناجيهما بالذات وإنما يناجى خالقها البادى جماله ومظاهر قوته في معانيها . ولذا نجد ابن الفارض يقرر في تأنيته الكبرى أن حسن كل مليح ومليحة معار من حسن الذات الإلهية ، وأن قيساً حيناً هام بلبني ، وأن مجنون ليلى حين هام بلبلى ، وأن كبير غزاة حين هام بعزة ، وأن كل العشاق حين يهيمون بمشوقهم لا يهيمون بهم على الحقيقة ، وإنما هم يهيمون بالذات الإلهية التي صورت تلك الصور فأحسن خلقها ، وأن الله مرئى وأن تلك الصور الجميلة المختلفة وإن تمددت إنما تعبر عن معنى واحد وهو الجمال الإلهي ، وأن العشاق جميعاً ينضوون تحت لواء لأنهم جميعاً بمشوقون معنى واحداً . وبعد أن ذكر في شعره شوقه للذات الإلهية كما رأى حسناً وكلما حاجه حب ، فيشاهدها فكره بطرف تخيله ، ويسمعها ذكره بسمع فطنته ، فينثني في ظاهره ويضطرب في باطنه ، ويرقص قلبه وتشدو روحه ، ويراهما ماثلة في معاني الحسن والجلال — خرج من ذلك إلى أن الإنسان يمثل الله على أرضه لأن فيه معنى من معاني جلال الرب . وكما أن من شاهد نفسه في المرآة بدت له صورتها ، وأن من تكلم بأكثر أنواع القصور سمع صوت نداءه ، فكذلك كل مظاهر القوة والجمال في هذا العالم ليست غير المعنى الإلهي الذي أودعه فيها . فالعبد على هذا إذا ناجى ربه فإنما يناجى علة وجوده ، والرب إذا ناجى عبده فإنما يناجى خلقه وصنعه ، فالصلة بين العبد وربّه إذن صلة موجود وموجد ، وما دام الموجد أصل الموجود ، والموجود لا يوجد إلا بهذا الموجد فالعبد عند معرفته نفسه ووقوفه على سموها ورفعتها إنما يعرف في ذلك ربه . والصورة الجميلة على ذلك إذا توجيت وإذا عشقت

وإذا هيم بها ، فإنما يهايم بها وتناجى وتمشق لهذا المعنى . هذا مثل نضربه للسادة الحسيين . وإذا أرادوا أمثلة أخرى فليرجعوا لكتابتنا مملكة الجمال والحق والخير ، ومناجاة الجمال ، ليجدوا أنا نرى أن الذي يشوق هو الحياة في العيون ، حياة يرقها وحياة سحرها ، والحياة في الحديث والحياة في الابتسامة ، وأن خفة الروح هي التي تحب إلينا الجميل ، تحب إلينا حديثه فتجعله منطليساً جاذباً لقلوبنا ، وتبث إلينا فتنته فتور عينيه ، وترسل إلينا تحيته ابتسامته وأنها صلة روحية يمزنا لتذوقها أن نفهمها لتحول بينها وبين البهيمية ولنقدس بها النعم علينا بها . وأحب بعد ذلك من هؤلاء الحسيين أن يجولوا معنا في كتاب تهذيب الأخلاق لابن مسكويه جولة قصيرة ليقفوا أمام قوله : « وقد ظن قوم أن كمال الإنسان وغايته هما في اللذات الحسية ، وأنها هي الخير المطلوب والسعادة القصوى . وظنوا أن جميع قواه الأخرى إنما ركبت فيه من أجل هذه اللذات والتوصل إليها ، وأن النفس الشريفة التي سميها ناطقة إنما وهبت له ليرتب بها الأفعال ويعزها ويوجهها نحو هذه اللذات لتكون الغاية الأخيرة هي حصولها على النهاية والغاية الجسمانية . وظنوا أيضاً أن قوى النفس الناطقة أعني الذكر ، والحفظ والروية كلها تراد لتلك الغاية ، قالوا وذلك أن الإنسان إذا تذكر اللذات التي حصلت له بالطعام والمشرب والمناكح ، اشتاق إليها وأحب معاودتها ، فقد صارت منفعة الذكر والحفظ إنما هي اللذات وتحصيلها ، ولأجل هذه الظنون التي وقعت لهم جعلوا النفس الميزة الشريفة كالعبد المهيّن وكالأجير المستعمل في خدمة النفس الشهوية ، لتخدمها في المال والشارب والمناكح وترتبها لها وتمدها إعدالاً كاملاً موافقاً . وهذا هو رأى الجمهور من العامة الرعاع وجهال الناس السقاط . وإلى هذه الخبثات التي جعلوها غايتهم ، تشوقوا عند ذكر الجنة والقرب من بارئهم عز وجل وهي التي يسألونها ربهم تبارك وتعالى في دعواتهم وصلواتهم ، وإذا خلوا بالعبادات وتركوا الدنيا وزهدوا فيها ، فإنما ذلك منهم على سبيل التجر والمراحمجة في هذه يمينها ، كأنهم تركوا قليلها ليصلوا إلى كثيرها ، وأعرضوا عن الفانيات منها ليبطلوا إلى الباقيات ، إلا أنك تجدهم مع هذا الاعتقاد وهذه الأفعال إذا ذكر عندهم الملائكة والخلق الأعلى الأشراف وما نزههم الله عنه من هذه

بفيض نور ذلك الخير الأول عليه، فيلتذ به لذة لا تشبهها لذة، ويسير إلى معنى الاتحاد، استعمل الطبيعة البدنية أم لم يستعملها، إلا أنه بعد مفارقتها الطبيعة بالكلية أحق بهذه المرتبة العالية، لأنه ليس يصفو الصفاء التام إلا بعد مفارقتها الحياة الدنيوية. فترى من هذا كله إعزاز الجانب الروحي في الدنيا، وهو بلا ريب في الآخرة أعز، وفي الجنة أوفى، فأحب أنا إذا ذكرنا الحور العين مثلاً وأنهن كما ذكر النزال غنجات عاطرات آمنات من الهرم والبؤس مقصورات في الخيام، وإذا ذكرنا أنه يطاف على المؤمنين وحورم يأكواب وأباريق وكأس من معين ييضاء لذة للشاربين وأن الذين يطوفون خدام وولدان كأمثال المثلوث المكنون في مقام أمين في جنات وعيون في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر (كما جاء في القرآن في سورة الرحمن والواقعة، وغيرها) أحب أن يكون فهم لذة هذا كله ما ذكرنا من تقديس خالق هذه الصور وهذه الجنات وهذه الأنهار، وفهم أن اللذة الروحية التي يتمتع بها المؤمنون من كل هذا هي أسنى مما يصوره بعضهم من أن المقصود هو أن يباحض المؤمن كل هذه الحور وأنه يوثق قوة عجيبة لإذ ذلك على الجماع. ولا أنكر أن يكون هذا في الجنة لأنه لذة وإن كانت لذة حسية إلا أنها لذة لهاحبها والرغبة فيها. ولكن الذي أنكره وأنكره بكل قواي أن يكون هذا الأمر الثانوي هم أهل الجنة أو أن يفهم بعضهم من ذكر الولدان الفهم السقيم الذي سبق أن ذكرناه وعارضنا فيه بعض العلماء، وأرى أن أسنى جزء في التمتع هو التمتع بالفكرة الروحية، وأن يكون المؤمنون في مقعد صدق عند مليك مقتدر ينظرون فيها إلى وجه الله الكريم وقد أشرقت في وجوههم نضرة النعيم، لهم فيها كل ما يشتهون، وأنهم كل يوم يفتاء العرش بحضرون، وأنهم ينالون بالنظر من الله ما لا ينظرون معه إلى سائر نعم الجنان. هذا وقد ذكر الأستاذ داود حمدان البعث والنشور، والرأي أنه سواء أخذنا بإعادة المعدم في الكل أو جمع ما تفرق من الأجزاء أو إعادة ما انعدم بذاته من الأجزاء وتأليف ما تفرق منه، فإنها إذا أعيست في الآخرة فلا بد أن يحملها الله تعالى في نشأة أخرى مستعدة للبقاء غير قابلة للقضاء مهيأة لا تلتاق من النعيم أو العذاب، وتكون الأرواح فيها قوالب الأبدان والأبدان من جنس أرواحها كما ذكره ابن القيم، وإن جميع الإدراكات من

الفاذورات، علموا بالجللة أنهم أقرب إلى الله تعالى وأعلى رتبة من الناس وأنهم غير محتاجين إلى شيء من حاجات البشر، بل يعلمون أن خالقهم وخالق كل شيء الذي تولى إبداع الكل هو منزّه عن هذه الأشياء متعال عنها غير موصوف باللذة والتمتع مع التمكن من إيجادها، وأن الناس يشاركون في هذه اللذات الخفائض والديدان وصغار الحشرات والهمج من الحيوان، وإنما يتناسبون للملائكة بالعقل والتمييز... » وبذا نراه وضع لنا أساساً سامياً نبيلاً في تقدير اللذات، وأن أسمائها ما كان رايانا. ثم جل معنا إلى أن نصل إلى قوله: « إن الإنسان ذو فضيلة روحانية يناسب بها الأرواح الطيبة التي تسمى ملائكة، وذو فضيلة جسمانية يناسب بها الأنعام لأنه مركب منها، فهو بالخير الجسماني الذي يناسب به الأنعام مقيم في هذا العالم السفلي مدة قصيرة ليعمره وينظمه ويرتبه حتى إذا ظفر بهذه المرتبة على الكمال انتقل إلى العالم العلوي وأقام فيه دائماً ممدداً في صحبة الملائكة والأرواح الطيبة ». ثم نراه يقرر أنه ليس معنى بالعلوي المكان الأعلى في الحس، ولا بالسفلي المكان الأسفل في الحس، بل كل محسوس فهو أسفل وإن كان محسوساً في المكان الأعلى، وكل معقول فهو أعلى وإن كان معقولاً في المكان الأسفل. ثم نراه يذكر لنا أن للحسن لذة عرضية على حدة، وأن للعقل لذة ذاتية على حدة، وأن من لا يعرف اللذة الذاتية لا يعرف اللذة بالحقيقة ولا يلتذ بها. وهو يسمى اللذة الناقصة التي تشاركنا فيها الحيوانات لذة انفعالية، ويسمى التامة التي يختص بها الحيوان الناطق لذة فعلية أي فاعلة، وسمى اللذات الحسية للفترة بالشهوات عرضية لأنها تزول سريعاً وتنقضي وشيكاً بل تنقلب لقاتها فتصير غير لذات بل تصير آلاماً كثيرة أو مكرومة بشمة مستقبحة، أما اللذة الذاتية فتسمى كذلك لأنها لا تصير في وقت آخر غير لذة ولا تنتقل عن حالتها بل هي ثابتة أبداً. وخرج من هذا الحكم بأن السعيد تكون لذاته ذاتية لا عرضية، وعقلية لا حسية، وفعلية لا انفعالية، وإلهية لا بهيمية. ثم يتحدثنا بعد ذلك عن الجوهر الإلهي الذي في الإنسان وأنه إذا صفا من كدورته التي حصلت فيه من ملابسة الطبيعة ولم تجذبه أنواع الشهوات وأصناف محبات الكرامات، اشتاق إلى شبيهه ورأى بعين عقله الخير الأول المحض الذي لا تشوبه مادة؛ فأسرع إليه وحينئذ

وأضوائها ، وهذه لذة روحية عند من يفهمون الروحانيات .
 جعلنا الله رجال روح ، ومتعنا في الجنة بحسياتها ومعنوياتها
 نعم روح أبدى سرمدى .
 محمد علي قراه

سمع وبصر ولذة وألم لا تكون متفرقة في مواضع البدن كما هي
 في نشأة الدنيا بل يوصف كل جزء بأنه سميع بصير متلذذ متألم كما
 تقتضيه نشأته « وننشئكم فيما لا تعلمون » ومعنى « كما بدأنا أول

خلق نعيده » أما نعيم أول خلق مماثلاً
 للذي بدأناه؛ والتشبيه يقتضى المقارنة (كما
 ذكر أستاذنا الرحوم الشيخ محمد حسين
 غلوف العدوى في كتابه أحكام الروح
 ص ٩٨) فهذا لا يتناقض إعزاز اللذة
 الروحية . وكذلك ذكر الأستاذ جويق
 رؤية الله تعالى، والرأى أنه جل شأنه لا يرى
 ولا يحس إلا بعبود مخلوقة له وبجلى لائق
 باستمداد الرأى كما نقله الألوسى عن بعض
 المحققين في تفسير قوله تعالى : « وجوه
 يومئذ ماضرة إلى ربها ناظرة » أنه إذا
 رفع الحجاب بينه تعالى وبينهم ينظرون
 إليه وينظر إليهم عز وجل . وأكرمهم
 على الله من ينظر إلى وجهه غدوة وعشية
 فيرونه سبحانه لكن لا من حيث ذاته
 البحت ولا من حيث كل تجلٍ حتى
 تجليه بنوره الشعاعى الذى لا يطاق ،
 بل بتجلٍ مطاق لهم وملائم لاستعدادهم،
 وأن هذا الحجاب (كما ذكر أستاذنا
 غلوف في أحكام الروح ص ١٠٢) غير
 الحجاب للشار إليه في حديث « حجاب
 النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه
 (أنواره وجلاله وعظمته التى منها خر
 موسى صمقاً وقطع الجبل دكاً لما تجلى
 عليه) كل شئ أدركه بصره ، فلامعنى
 لرؤية ذاته تعالى عند المحققين إلا رؤية
 حجاب (حجاب التنزل والتجلى) كما
 أنه لا معنى لرؤية ذاتنا إلا رؤية ألوانها

كريم بالمؤلف للحلاقة
 يتخدى !
 ويقول !



- انه افضل كريم حلاقة الوجه . لأنه يرغى بمعدل ٣٠٠ مق
 - انه لا ينشف على الوجه بل يجعل الوجه طرياً ناعماً للحلاقة
 - ان نقايقته تجعل الشعر ينتصب فتمر عليه الموى وتخلقه بسهولة
 - انه هو الكريم الوحيد المركب من زيت الزيتون وزيت
 فيه النخيل . لذلك يشتره الانسان بلذة بعد انتهاء الحلاقة